هواجس في الانسان وحياته [1]

لعزيز مصطفى الشهابي

عاش الانسان بالاوهام آلافاً من السنين وسيظل عبداً لهذه الأوهام حتى يتكامل عقله بعد آلاف اخرى ويصير قادراً على ان يحيط بشيء من اسرار هذا الكون الذي لا يعرف لهُ حد ولا مبدأ ولا نهاية

نقرأ في بعض كتب الدين ان الانسان لم يُخلق الا منذ سبعة آلاف او ثمانية آلاف سنة فيجيب علماء الجيولوجيا بأنهم عثروا على جماجم الانسان وعظامه وعلى ادوات كان يستعملها لا في حقبة الراسبات وحدها بل في حقبة ما قبل الطوفان حتى في اواخر الزمن الثالث اي منذ مئات الوف من السنين . ومع هذا لا يُعد هذا التاريخ الواغل في القدم شيئاً مذكوراً اذا قيس بعمر طبقات الارض السائرة وما كرّ في تكونها من ملايين السنين

ما هي ثمانية آلاف السنة . انها هنيهة من هذا الزمن بل هي تبدو اذا قيست به اصغر من اللحظة التي تبرق فيها اعاضة كهربائية . فقد حفر اناس الارض في الوجه البحري من وادي النيل في القرن الماضي فوجدوا في عمق ستين الى سبعين قدماً قطعاً خزفية واشياء اخرى من صنع الانسان . فاذا ما بلغ غلظ الراسبات من مياه النيل هنالك خمس عقد في كل مائة سنة وفاقاً لرأي احد العلماء يكون عمر هذه المصنوعات ١٤٤٠٠ الى ١٦٨٠٠ سنة . وعثر آخرون هنالك على قطع من الآجر الاحمر في عمق ٧٢ قدماً وحسبوا ان الرواسب تعلو عقدتين ونصفاً في كل مائة سنة فيبلغ عمر تلك القطع ثلاثين الف سنة ونيفاً . وذكر عالم آخر ان ارض الوجه البحري تعلو ثلاث عقد ونصفاً في كل قرن وان ارتفاعها بلغ ٢٠٠ قدم منذ ما وجد الانسان عليها فيكون ذلك الانسان ماثلاً في مصر منذ نحو سبعين الف سنة

اما في اميركا فبينما هم يحفرون في ارض نشأت مما رسب من نهر المسيسبي لبناء معمل للغاز عثروا في اعماق الارض على عظام بشرية وعلى جمجمة لها كل الصفات التي تتميز بها جماجم سكان اميركا الجنوبية وقد قدروا عمر هذه الجمجمة بخمسة عشر الف سنة على اقل تقدير ومنهم

---

(١) كتبت بعد تلاوة « اصل الانواع » لداروين و « اساجي الكون » لهكل و « الانسان بنظر العالم » لبوخنر و « الفلسفة المادية » لاوغست كونت وغيرها

من حسب لها خمسين الف سنة . ووجدوا ايضاً قطعاً من الخزف يرجع عهدها الى ١٢٠٠٠ سنة او اكثر

وليست هذه السنون المتطاولة (وكلها ترجع الى حقبة الراسبات) بالشيء الذي يعبأ به اذا ما قارناها بعمر الانسان الذي وجدت جماجمه وعظامه ومصنوعاته في اماكن من حقبة ما قبل الطوفان كما في مغارة اورينياك في جبال البرانس وكما في مغائر كثيرة في البرازيل وبلجيكا وانكلترا وفرنسا واوستراليا وغيرها من انحاء الارض . أترى ماذا كان عقل الرجل في ذلك العهد البعيد اذ هو لا يملك من وسائل الحضارة شيئاً واذ لهُ سحنة حيوانية وحواليهِ وحوش مفترسة انقرض معظمها كدب المغائر والمموت وفيل ما قبل الطوفان والكركدن وغيرها. ولعل ارفقها بهِ الفرس الوحشي على ما فيهِ من حران وجماح . وكيف كان يتقي شرها وكل ما فتقت لهُ قريحته البهيمية ان يضرب صوانة بصوانة حتى اذا صقل إحداها اعتمدها في طعن اعدائه الكُثُر دفاعاً عن نفسهِ او تلمساً للقوت

ونقرأ في كتب دينية اخرى ان الانسان خلق في احسن تقويم فيجيب علماء التشريح والحياة (بيولوجيا) بان ذلك صحيح في يومنا هذا . لكن المرء لم يكن كذلك في سالف الاحقاب الجيولوجية عند ما اخذ نوعه يتحدر من حلقات حيوانية معروفة او مفقودة واخذ ينفصل عنها ويستقل في نوعه . ثم اي فخر في هذا التقويم وهو لا يتعدى في كل مظاهره تركيب حيوان من ذوات الفقرات وذوات الاثداء. وكيف يصير الانسان خدنه واقرب الاحياء اليهِ القردة وهو واياها من اصل حيواني واحد . واذا كانت هذه الحقائق تستثير غضب الانسان وتصيبه في كبريائه وجبروته فليفكر من حيث علم التشريح في جميع خلايا جسمه ونسجه المختلفة أتراه يرى في اسسها ما يميزها عن مثلها في الحيوانات المذكورة . وليتأمل من حيث الفسيولوجيا اي علم وظائف الاعضاء فيا تأتيه اعضاؤه واعضاؤها من عمل. فهل يرى فرقاً في العملين؟ اليست سنن الحياة تسير على وتيرة لا تبدل فيها ولا تميز . لاشك ان الانسان قد نما وتكامل مع الزمن لكن الاسس واحدة سواء في تكون الجنين من نطفة ام في تركيب الاعضاء ام في عملها . ثم ان الانسان لا يزال محتفظاً ببعض ما ابقاه فيهِ اسلافه من الاعضاء الحيوانية كالذنب التي تكون ظاهرة في الجنين وتختفي فيما بعد لكن اثرها لا يخفى على المتفرس لها . وكعظمة ما بين الفكين واسنان الحليب وشعر الجنين الصوفي ولحي النساء وشعور الرجل المفرطة وعضلة الاذن التي يروضها بعضهم فيحركون بها آذانهم الى غيرها وهي كثيرة

وليس للصفات التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان شأن كبير اذا فُحصت بمجهر العالم المحقق البعيد عن الخرافات وعن اوهام المعتقدات المختلفة . يمتاز الانسان بعقله وتفكيره ونطقه وسحنته البشرية ووقوفهِ على رجلين واستعمال يده للقبض وبعض صفات اخرى . فأما

العقل والتفكير فهي يكادان يكونان مفقودين في الانسان الوحشي الذي يعيش في اواسط افريقية في ايامنا هذه . فاذا كان تفكير الانسان الذي كان يعيش في اواخر العهد الثاني مثلاً والذي لم يتعلم صنع القوس من الصوان الا بعد لأي . ولعل هذا الاختراع كان في نظره اهم من اختراع أديسن للمصباح الكهربائي والسيما في نظره . واذا كان انسان اليوم المتمدين يتزوج ويعيش في اسرة مجتمعاً مع ابناء جنسه ويشتغل بالزراعة والصناعة والعلوم المختلفة افتراه كان كذلك في فجر حياته ؟ لا يختلف دماغ الانسان (وهو مركز العقل والتفكير) عن دماغ الحيوانات القريبة منهُ الا بكبره وبنموخلايا تلافيفه ولاسيما بكبر الجهاز العصبي المختص بتقوية المدارك . ومع هذا نرى لكل هذه المميزات اساساً في دماغ القردة حتى حكم الفلاسفة الماديون بأن مدارك الانسان ليست في الحقيقة سوى تكامل ما هو كامن منها في الحيوان الاعجم القريب من الانسان

واما النطق فهو ايضاً نتيجة حلقات بطيئة من التكامل في حركة اللسان . وهو اليوم جدُّ سقيم لدى بعض الشعوب المتوحشة حتى نكاد نُحجم عن تسميته نطقاً . ولا جرم ان الانسان كان في فجر حياته اخرس اللسان ثم اخذ رويداً رويداً يُسمع صوته في تلمس حاجاته كالاطفال والمتوحشين والصُمّ . ثم تكامل نطقهُ مع كرّ الايام وتعاقب العصور الى ان بلغ ما هو عليه اليوم . وقد كتب العلماء كتباً عديدة في إثبات هذه الحقائق إثباتاً علميًّا بالحسّ والاستقراء

واما سحنته البشرية فلقد كانت اقرب الى الحيوان منها الى الانسان بدليل شكل عدد من الجماجم التي وُجدت في حقبة ما قبل الطوفان . واما وقوفه على رجلين وقبضه باليدين فهما من الامور التي يسهل على العلماء تعليلها وليس لهما شأن كبير في تمييز الانسان عن الحيوان

يستنتج الفلاسفة الماديون مما ذكر ان الانسان لم يخلق من طين منذ بضعة الوف من السنين بل هو حي من جملة الاحياء على هذه الارض كان أسلافه حلقات حيوانية منذ مئات عديدة من القرون فتطورت تدريجيًّا وتكاملت وفقاً لسنن الطبيعية الثابتة حتى صار الانسان على شكله الحاضر اي صار اتمّ الحيوانات واعلاها خلقاً

ويقولون لك اذا سألتنا لماذا وجد الانسان فأنك لن تظفر بطائل لان معرفة ذلك فوق طاقة البشر . وكذا لو سألت لماذا وُجدت الارض أو وُجد الكون أو وُجد الوجود . ولما كان العقل البشري غير قادر على الوصول الى جواب هذا السؤال بأساليب علمية يقينية تركوا الاجابة عنه لاصحاب الفلسفة الغيبية فراح كلٌّ منهم يعلل سبب الوجود بما تمتق له قريحته تعليلاً فلسفيًّا لا علميًّا . ومتى قلنا « تعليلاً فلسفيًّا » معناه ان هذا التعليل لا يرتكز على الحقائق العلمية التي يتناولها الحس فهو اذن قد يكون تعليلاً صحيحاً وقد يكون غير صحيح

ويلخص اصحاب الفلسفة المادية عقائدهم أو نلخصها نحن بما يلي وهو :

اولاً — يجب ان يؤمن الانسان بالحقائق العلمية التي تقع تحت الحس وان لا يعلل الاشياء الاّ بالطرائق العلمية وأن لا يشتغل عبثاً بالبحث عن اسباب وجود هذا الكون لان عقله لا يدركها وليتمثل ببيت المعري

اما الالهُ فأمرٌ لستُ مدركَهُ فاحذر لجيلك فوق الارض إسخاطا

ثانياً — لما كان كثير من العقائد الدينية لا يرتكز على حقائق علمية اصبح الاعتقاد بها أو عدمه سيين . ويمكن تعليم الناس وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة دون ما حاجة الى اضافة العقائد الدينية اليها كما يمكن تأسيس حكومات لا دينية تسير في شعوبها سيراً عادلاً

ثالثاً — على الانسان ان يعمل الخير لنفسه ولابناء نوعه وان يوفق بين ما ينفعه وما ينفعهم حتى تخفّ وطأة تنازع البقاء

رابعاً — عليه بأن يسعى في توسيع مداركه وفي تذليل قوى الطبيعة والاستفادة منها مع علمه بأنها ظالما آذته وفتكت به ولا سيما في سالف الاحقاب

* * *

ومما لا ريب فيه ان معظم الفلاسفة الماديين ملحدون ولكن الالحاد ليس شيئاً تستلزمه عقائدهم استلزاماً . وكثير منهم يسعون للتوفيق بين الدين والعلم كما يسعى اليه المستنيرون من رجال الدين

وبعد ماذا يتزود الانسان من تلاوة كتب فلاسفة اليونان والعرب والاوربيين على اختلاف أبحاثها ، اتظن انه يتوصل الى معرفة اسباب وجود الانسان أو وجود الكون أو الغاية من الوجود أو المبدأ أو النهاية . انهُ لا يخطو في هذه الموضوعات خطوة واحدة كما أن كل من تصدوا للبحث فيها لم يخطوا الاّ بأوهامهم

ولعلّ أثمن أمنية للانسان ان يأتي الى هذا العالم بعد الوف من السنين فلربما يكون تقدُّم العقل البشري عند ذلك كافياً لادراك شيء من اسرار هذا الكون

فأما ونحن اليوم على ما نحن عليه من الجهل فان من اكبر فوائد الحياة ان يعتقد الانسان بأن الجنة تنتظره في عالم آخر . والسعيد اذن ذاك الذي يؤمن بالله وباليوم الآخر ويعمل في حياته القصيرة عملاً صالحاً ينتفع منه ابناء نوعه . ولو لم يكن للاديان من فضيلة سوى أنها تزيل من قلب الانسان ذلك الشك القاتل في مصيره بعد الممات لكانت هذه الفضيلة وحدها كافية لاحلال الاديان في النفس موضع التجلة والاحترام

دمشق